عبدالنبي اصطيف

العولمة..
وأدبنا العربي المعاصر

يطرح الأدب العربي المعاصر عامة، والراهن خاصة، في عصرنا؛ عصر العولمة، وبخاصة في شِقّه المهجري، ولا سيما (المهجري الجديد) منه، أو ذاك الأدب العربي الذي يُنتِجه كُتّاب عرب، أو من أصول عربية، باللغات العالمية، في مغتَرَباتهم المختلفة: في الأمريكيتين، وأوروبا، وأستراليا، وإفريقيا، وغيرها، أقول يطرح، وبإلحاح شديد، مسائل، لم تكن موضع نظر من قبل في دراسة هذا الأدب؛ مسائل من مثل الهوية، والهُجنة، والاغتراب، والهجرة، والفروق الثقافية، غدت دراستها وفهمُ تضمُّناتها وأبعادها، وتُبيُّن صور تأثيرها في هذا الأدب، ضرورةً لازبة لأي دارس جاد ومخلص لهذا الأدب.

فأما مسألة الهوية، فإنها تتعلق بِالنَسب القومي لهذا الأدب، وطبيعة انتمائه إلى التقليد الأدبي القومي، الذي يُدرس ضمن إطاره، ويشكِّل جزءاً من تاريخه. فهل الأدب الذي ينتجه العرب اليوم باللغات العالمية المختلفة في مختلف مغترباتهم، وفي أوطانهم التي يُشار إليها بـ(الوطن العربي)، والمنتَج باللغة العربية في عصرنا الراهن– عصر العولمة، هو أدب واحد، ينتمي إلى قومية منتجيه، وليس إلى جنسياتهم المكتسبة؟ أم أنه أكثر من أدب، إذا ما أردنا تصنيفه تبعاً لأداته اللغوية، أو إلى جنسيات كُتّابه وأوطانهم الجديدة، ولغاتهم الجديدة التي اكتسبوها؟ أم هو أدب هجين، إذا ما أخذنا مكوِّناته بالحسبان، واتخذناها معياراً لتصنيفه، وهو عندئذ أدب ذو شرطة؟ وأكثر من هذا، فإنه ليس أدباً هجيناً وذا شرطة فقط، بل هو أدب متنوّع تنوّعاً لافتاً للنظر تبعاً لطرفَيْ هذه الشرطة: فهو أدب أمريكي– عربي، وأدب إنجليزي– عربي، (أو أدب أنجلو– فوني عربي)، وأدب فرنسي– عربي (أو فرانكو– فوني عربي)، وأدب ألماني– عربي، وأدب إيطالي–عربي، وأدب إسباني– عربي، وأدب برتغالي– عربي..إلخ. بل هل يمكن نعته، بعد كل ما تقدّم من تساؤلات، بأنه (أدب عربي) حقاً، بمعنى أنه استمرار لمسيرة الأدب العربي التقليدي الكلاسيكي، أم هو أدب ينتمي إلى عالَم آخر، وليس له من صلة بِنظيره القديم غير أصول منتجيه، أو لغته العربية، عندما يختارونها أداة لأدبهم، علماً أن هذه الأداة– أي اللغة العربية– قد تغيرت أيضاً إلى درجة تجعل من العسير فهمها وتبيّن دلالاتها على العربي الجاهلي، أو الأموي، أو العباسي، أو من عاش في العصور اللاحقة.

وثانية نسأل: إلى أية قومية ننسب هذا (الأدب) الذي تتداخل مكوِّنات ضفيرته تداخلاً فريداً من نوعه، ودارسو الآداب القومية الغربية لا يدرجونه ضمن تواريخ آدابهم؟ ومعنى هذا أن علينا أن نبحث له عن انتماء حقيقي يُرضي دارسيه المختصين، ويرضيه، في آن معاً.

وثمة سؤال مركّب يطرح نفسه بقوة في هذا المقام، ويتصل بهوية هذا الأدب، وهو: هل تتحدَّد هوية الأدب باللغة المُنتَج بها أي بأداته، وعندها سوف يُستثنى الأدب المهجري الجديد المنتَج بلغات عالمية كـ(الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، والألمانية، والإيطالية) من إلحاقه بالأدب العربي المعاصر؛ أم تتحدَّد بالمنتِج وهويته– أي بجنسيته، أو ما اكتسبه من هويات

يطرح الأدب العربي المعاصر مسائل جديدة على دراسة الأدب ومنها الهوية والهجنة والهجرة والاغتراب

كاللاجئ، والمنفي، والأجنبي، والغريب، والفرانكوفوني، والأنجلو- فوني وغيرها؛ أم تتحدَّد بالمحتوى الذي ينطوي عليه هذا الأدب وبما يفصح عنه من مواقف تجاه الوطن العربي، والأمة العربية، وما يتصل بهما من قضايا؛ أم تتحدَّد بمجموعة هذه العوامل، وربما بعوامل أخرى خاصة بمنطقة إنتاجه؟

وأما مسألة الهجنة، فإنها تتخلَّل هذا الأدب بدءاً من أداته: اللغة الطبيعية، سواء أكانت العربية المعاصرة أم اللغة العالمية التي اتخذها الأديب المهجري المعاصر أداة له، شاملة موضوعاته، وحساسياته النفسية والاجتماعية والفنية، فضلاً عن صُوَره ومجازاته وأدوات تعبيره، التي يمكن الزعم بأنها غدت (كوزموبوليتانية)، أو عالمية، نتيجة انفتاح الثقافات المعاصرة على بعضها، وتفاعلها الحميمي، ولا سيما في حالة الأدب المهجري، بل إن الأدب العربي المنتَج بالعربية المعاصرة والمنشور في البلاد العربية ينطوي على هجنة مماثلة، وإن كان بدرجة أقل بسبب طبيعة التكوين الثقافي للأديب العربي (المقيم) مقابل الأديب (المهاجر) إذا ما جازت التسمية، وقليل من هم كذلك، ذلك أن فرص المهرجانات الإقليمية والدولية، والمؤتمرات، واللقاءات، وبرامج التبادل الثقافي ما بين الدول في تنامٍ وازدياد ملحوظين. ومعنى هذا أن الكاتب العربي يُنتِج أدباً ذا مكونات متنوعة داخلية وخارجية، قومية وغير قومية، محلية وأجنبية، تجعل من الحديث والأصالة والنقاء حديثاً عن سراب مزعوم.

والواقع أن الأديب العربي في عصر العولمة مُوزَّع بين موروثه الثقافي (الذي يشمل دينه وعقيدته، وعاداته وتقاليده الاجتماعية، فضلاً عن المتن الأدبي الذي تيسّر له الاطلاع عليه)، وبين ما اكتسبه من ثقافات أخرى بشكل مباشر وغير مباشر، ومن الطبيعي أن يتفاوت هذا المُكتسَب بين كاتب مهجري استوطن مغترَبه واندمج في مجتمعه الجديد، وبين كاتب مقيم اقتصر على حصيلة تفاعله مع الثقافات الأخرى من خلال قنوات محدودة بظروف بلده العربي، كالمشاركة في المؤتمرات والندوات والمهرجانات الدولية والإقليمية، فضلاً عن الترجمة، التي يعتمد عليها الكاتب المهاجر، الذي بات يعيش في مجتمع التعددية والتنوّع، في توسيع دائرة معرفته بمن حوله: ثقافة وتاريخاً ومجتمعاً، مثلما يعتمد الكاتب المقيم عليها، بغرض الاطلاع على منجزات الثقافات الأخرى، حتى وإن كان يتقن أكثر من لغة أجنبية.

وأما مسألة الاغتراب فهي مسألة مُركَّبة بحق؛ ففي حين ثمة اغتراب مادي وفعلي وشامل يملأ عالم الأديب المهجري في مغترَبه، هناك اغتراب مجازي متعدد الوجوه لدى الأديب العربي المقيم في وطنه. فالأديب المهجري قد يكون غريب الوجه واليد واللسان، ولكنه يظل أبداً المواطن الوافد، أو اللاجئ، والشرق أوسطي، والعربي، والمسلم، والغريب، والمهاجر، والسوري، واللبناني، والمصري، والمغربي.... والذي يُنسَب إلى ما خلّفه وراء ظهره، ولذلك فإنه يعيش غربة أبدية، يشده حنين غامض إلى ماضٍ انصرم ولن يعود، وإلى وطن لم يبق في ذاكرته منه سوى أنه بعيد. والأديب المقيم في وطنه مغترِب في لغته الباحثة عن التميز والإبداع، مغترِب في فنه الأدبي الذي يحاول به أن يجد مكانه في سلسلة الأدب الراهن، مغترِب في رؤيته للعالم باستشرافه عالَماً أفضل من عالَم الواقع، مغترِب في موضوعاته حين يُشاغل مُحَرَّمات مجتمعه، أو قضايا المُهمَّشين فيه، أو حين يُناجز ما لا يقتنع بصوابه، مناجزَة دون كيخوته لطواحين الهواء في الغالب.

وعلى الرغم من التواصل اليومي أحياناً، ما بين كُتّاب عالَم الاغتراب ومجتمعاتهم في عالَم الوطن، والمتابعة المستمرة لما يجري فيه، ومتابعة كتّاب الوطن لما يجري في العالَم متابعة يسّرتها ثورة الاتصالات، وما يفرضه هذا التواصل من مقارنة وتحفيز على التغيير في كلا الطرفين، فإن من الملاحظ أن كليهما يتحرك في عالَم متجاوِز على نحو ما، وإلى درجة ما، عالَمه الذي يعيشه، وأنه يختبر، أو يعيش، بوجه من الوجوه في عالَم الكرة (الأرضية) برمتها، عالَم العولمة، ومن ثَمَّ فإنه ينظر إلى نفسه على أنه أديب عولمي، يكتب للإنسان أنّى كان، وأينما وجد.

مسألة الهوية تجعل الأدب ينتمي إلى قومية وليس إلى جنسيات مكتسبة

الهجنة تتمثل في الأديب المقيم مقابل الأديب المهاجر

الاغتراب مسألة مركبة ما بين مادي وفعلي أو مجازي متعدد الوجوه

الجميع يتحرك الآن في محيط متجاوز في عالم العولمة الإنساني